علماء العرب 5

ابن البيطار

عالم النبات

تأليف : سليمان فياض

رسوم : اسماعيل دياب

عاصمة الثقافة العربية

منشورات ANEP

علماء العرب

ابن البيطار

عالم النبات

تأليف : سليمان فياض
رسوم : اسماعيل دياب

الكتاب: ابن البيطار
سلسلة علماء العرب
المؤلف: سليمان فياض
تصميم الغلاف: بديعة ميدات
الناشر: منشورات ANEP

50، شارع خليفة بوخالفة – الجزائر
الهاتف/فاكس: 213 21 23 64 85 / 213 21 23 89 61
الهاتف: 213 21 23 89 16 / 213 21 23 68 32
فاكس: 213 21 23 64 90
e-mail: editionsanep@yahoo.fr

الطبعة الأولى 2006
ISBN : 9947-21-283-1

جميع الحقوق محفوظة لمركز الأهرام للترجمة والنشر

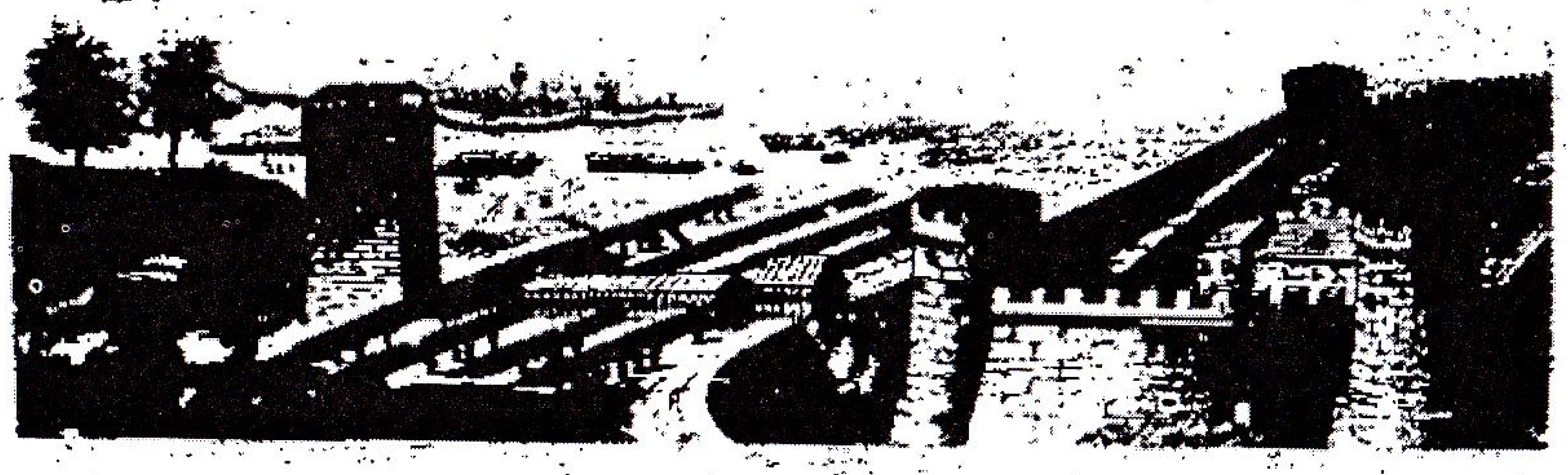

مَدينة ... على البَحر

قَبلَ سَبعمائةِ عام، كَانَت مَدينة «مَلَقا» مَدينةً عَربيةً جَميلةً، تَقَعُ عَلى الشّاطئِ الجَنوبيّ الشّرقيّ بِالأندَلُس (إسبانيا الآن). كَانَت مَدينةً عامِرَةً بالبَساتين، يَمُرُّ بها النَّهرُ، تَضجُّ فِي النّهارِ بِأصواتِ الحِرَفِيِّينَ الذينَ يَصنَعونَ الصّابونَ، ويَستَخلِصونَ زَيتَ الزَّيتون، وبِأصواتِ البَحّارة فِي مينائها الذي تَفِدُ إليه السُّفُنُ وتَذهَبُ. وفِي اللّيلِ، بِالقُربِ مِن جَبَلِ الفَتحِ، كانَتْ «مَلَقا» تَسمُرُ وتَنامُ، وقَدْ أُغلِقَتْ أبوابَ أسوارِها الحَصينة، عَلى أصواتِ المُوسيقى، وأغاني المُوَشَّحات الأندَلُسيّة، وحكاياتِ الحُروبِ بَينَ العَرَبِ والفرِنجَة، وقِصَصِ الفِتَنِ والثَّوراتِ، فِي عُهودِ مُلوكِ الطَّوائِفِ، وسَلاطينِ المُرابِطين، والمُوَحِّدين.

وكانَت فُصولُ العام تَمُرُّ على «مَلَقا» بِسَماواتٍ رائِقة، وسَماوات مُلَبَّدَةٍ بالسُّحُبِ غَزيرةِ الأمطارِ، وسَماواتٍ تعكسُ بَياضَ الثُّلوجِ على قِمَمِ جَبَلِ الفَتْحِ وسُفُوحِه، وفَوقَ سُقُوفِ البُيُوت، وهَامَاتِ الأشجَارِ.

وعِنْدَ الفجرِ، فِي كُلِّ الفُصُولِ، كَانَت تَصْدَحُ في ميناءِ «مَلَقا» أَصواتُ البَواخِرِ، والسُّفُنِ الصَّغيرةِ، الدّاخِلَةِ إلى الميناءِ والخارِجَةِ منه، تَرقُبُها عُيونُ الحُرّاسِ فِي قَلْعَةِ «مَلَقا» المَهيبة، ومِن وَرَاءِ فَتَحاتِ الأسوارِ الشّامِخة.

وفِي مَدينةِ «مَلَقا» كانَ يَعيشُ «أحمد البيطار»، مَعَ زَوجتِه: «نُعْمى» وابنِه: «عَبدُ اللّه». كَانت حِرفةُ أَحمد هِيَ البَيْطرة (علاجُ الحَيَوانات). وأَحيانًا، كانَ يَقومُ بِتَركيبِ الحَداوَى لِحَوافِرِ خَيلِ الفُرْسَانِ. وكانَ أَحمدُ قد بَلَغَ مِنَ العُمرِ خَمسًا وثَلاثينَ سَنَةً.

وذاتَ صَباحٍ، كانَ أَحمدُ يَجلِسُ عِندَ سورِ بَيته، وقَد أَوقَدَ نارًا، وراحَ يَصنَعُ ثُقوبًا لِلمَسامير في حَدوةٍ تَتَّقِدُ كالجَمرِ. وبَينَ حينٍ وآخر يَمسَحُ عَرَقَ جَبينِه في كُمِّه. وفَجأةً، أَقبَلَ نَحوَه فارسانِ مِنَ الفِرَنْجة، خارِجَيْنِ عَلَيه من غابَةٍ قَريبةٍ. وتَوَقَّفا عِندَه بِفَرَسَيهِما، وقالَ لَهُ أَحدُهما، وهُوَ يَنزِلُ عن فَرَسه:

- أنتَ يا نَعَّال.

فَألقَى أحمد بالحُدْوَة، وانْتَفَضَ واقِفًا، وقالَ فِي غَضَب:

- لَستُ نَعَّالاً. أنَا بَيْطار، أُعالِجُ.. الحَيَوانات !! فَتَضاحَكَ الفارِسان، وقالَ لَه الآخَر:

- صِناعَتُكَ هِيَ الحَيَوانات فِي الحَالين.

فَقالَ لَهُما أحمدُ بِسُخْرِيَةٍ:

- نَعَمْ. حِرْفَتي هِيَ.. الحَيَواناتُ!! ماذَا تُريدان؟

- نِعالاً، أم .. عِلاجًا؟

فَقالَ أحَدُ الفارِسَيْن:

- نُريدُ حَدَاوَى لِفَرَسَيْنَا.

وعَبَر أحمدُ بابَ بَيْتِه إلى حُوشِه. وكانت «نُعْمى» واقفةً بجانبِ سَلّةٍ مِن خُوصِ النَّخيلِ، مَلِيئةٍ بالحَدَاوَى والمَسامِير. وانْتقى أحمد ثَمانِيَ حَدَاوَى، ومَسامِيرَ كَبيرةً.

وقَالَتْ نُعْمى لِزوجِها مُحَذِّرَةً:

- احتَرِس من هَذَيْن الفارِسَيْن. فَهُما فيما يَبدُو مِن أَشْرَارِ الفِرِنْجَة، الذينَ تَسَلَّلوا إلى الغابَةِ، فِي غَفْلَةٍ مِن فُرسَانِنا العَرَب.

فَقالَ لَها أحمدُ بِدَهَاءٍ:

- لاَ تَخافِي. سَأدُقّ لِفَرَسَيْهِما حَداوى بِمَسامِيرَ كَبيرة تُحدِثُ لَهُما آلامًا فِي السَّير، فَلا يَقدِرِ الفُرسانُ عَلى العَدْوِ والهَرَبِ فِي الغابَةِ، حِينَ يَلمَحُهُما فُرسَانُنا العَرب.

وعادَ أحمد بالحَدَاوَى والمَسامير. وأخَذَ يَنْزِع الحَدَاوَى المُتَآكلة من حَوافِرِ الفَرَسَيْن، ويدقُّ الحَدَاوَى الجَديدةَ مكانَها بِمَسامير كَبيرة. وكانَ الفارِسانِ قَد جَلَسَا يَسْتَدْفِئَانِ حَوْلَ النّار، ويَشْرَبانِ خَمرًا مِن زُجاجَة. بَيْنَما كانَ «عَبدُ اللّه» واقفًا عِندَ مُنْعَطَفِ السّور يَرْقُب أباهُ، والفَارِسَيْن، والفَرَسَيْن. ورآهُ أحَدُ الفارِسَيْن فَصاحَ بِهِ:

- أنت يا غُلام. تَعالَ.

فَتراجَعَ عَبدُ اللّه، واختَفَى وَراءَ زاوِيةِ السّورِ. فَهَمَّ الفَارِسُ بالقِيام إليه، فَقالَ لَهُ الفارِسُ الآخر:

- دَعْكَ مِنه. إنَّهُ ولابُدَّ واحِدٌ مِن هَؤُلاءِ الأيتامِ الذين قَتَلْنا آباءَهُم.

وأغْرَقَ الإثْنانِ فِي ضَحِكٍ قَبيحٍ.

لاَ تَشرب يا أَبِي

كانَ أحمدُ قد انتَهى مِن عمَلِه، ووَقَفَ قَلِقًا على وَلَدِه «عَبدُ اللّه» يَخْشَى أن يَنالَه أذًى مِن أحَدِ الفارِسَيْن، ونَهَضَ الفارِسَان واقِفين، واتّجهَا نَحوَ أحمد، وقدّم له أَحدُهما زُجَاجَةَ الخَمْرِ قائِلاً:

- خُذْ واشْرَب. لَم يَبْقَ فِي الزُّجاجةِ سِوى قَدَحٍ صَغير.

فَقالَ أحمدُ بِحزْم:

- لاَ. إنَّها خَمْر. قَليلُها وكَثيرُها حَرام. حَرّمَها اللّه مِن فوقِ سَبْعِ سَماوات.

فَقالَ لَه أَحَدُ الفارِسَيْن بِغِلظةٍ:

- إذَا لَمْ تَشْرَبْ حَرَمْنَاكَ مِن أجْرِك.

فَقالَ أحمدُ نَاهِرًا:

- لاَ أُريدُ مِنكُما أجرًا. ارْكَبَا فَرَسَيْكما واذْهَبَا.

فَصاحَ الفارِسُ الآخَرُ غَاضِبًا:

- لَن تَقهَرَنا أَنتَ وقَومُكَ، ستَشرَبُه، وإلاّ قَتَلْناك.

وأَمْسَكَ أحمدُ بِالزُّجاجة، وقد خافَ عَلى نَفسِه مِنَ القَتْل، وراحَت يَدُه تَرْتَعِدُ بِتَرَدُّد، والفارِسان يَنظُران إليه.

وفَجأةً، اندَفَعَ عَبدُ اللّه نَحوَ أبيهِ أَحمد وهُوَ يَصيح:

- أَبِي أَحمد. أَبِي أَحمد. لا تَشْرَب يَا أَبِي.

وضَرَبَ عَبدُ اللّه الزُّجَاجةَ بِيَدِه، فَوَقَعَت مِن يَدِ أَبيه عَلَى الأَرضِ، وانسَكَبَ مَا بِها. وجَرَى عَبدُ اللّه مُبتَعِدًا واختَفَى فِي قَلبِ الغابَة. وفِي الحالِ، وَثَبَ الفارِسانِ عَلَى فَرسيْهما، وعَدَوا بِالفَرَسَيْن وَراءَه، واختَفَيا فِي قَلْبِ الغابَة. ودَبَّ الخَوْفُ فِي قَلْبِ أَحمدَ عَلى مَصيرِ وَلَدِه عَبدِ اللّه، وقَبْلَ أَن يَجرِيَ وَراءَ الفَرَسَيْن، إذَا بِهِ يُحِسّ بِيَدٍ تَجْذِبُ ثَوْبَه، وبِصَوتٍ يَقولُ لَه:

- أَبِي.

والتَفَتَ أَحمدُ فَرَأَى وَلَدَه عَبدَ اللّه، فَجَثَا بِجانِبِه، هَمَسَ بِفَرَحٍ:

- الحَمدُ لِلَّه. كَيفَ خَدَعْتَهما، وعُدْتَ إليَّ.

فَقالَ عَبدُ اللّه وهُوَ يَضْحَكُ:

- دَخَلتُ الغابَةَ، ثُمَّ خَرَجْتُ مِنهَا ودُرْتُ حَولَ البَيتِ، وعُدْتُ إِلَيك، وتَرَكتُ هَذَيْن الفارِسَيْن يَبْحَثان عَنّي فِي الغابَةِ.

وسَمِعَ الإثنان أصواتَ عَدْوِ الخَيلِ في الغابَةِ وأصواتَ صَليلِ السُّيوفِ، ثُمَّ سَمِعَا صَوتَيِ الفارِسَيْنِ يَصْرُخانِ فَزَعًا، واحِدًا بَعدَ آخَرَ، ثُمَّ.. سادَ الصَّمْتُ، فَقالَ أحمد لعبد اللَّه:

- لَقد لَحِق فُرسانُنا بالفارِسَيْن وقَتَلاهُما. عاقَتْ هَرَبهما مَساميرِي الكَبيرَةُ يا عبدَ اللَّه.

طَاب صَباحك يا صاحِبِي

كانَ عبدُ اللَّه قَد بَلَغَ مِنَ العُمرِ عَشرَ سَنَواتٍ. وكانَ يَعرِفُ أَسرارَ حِرْفَةِ البَيْطَرة، لَكنَّه لَم يَكُن يُحِبُّ العَمَلَ. كانَ يُؤثِر، في كلِّ نَهارٍ، التَّجَوُّلَ في الغابَةِ حَولَ «مَلَقا» وَالسَّيرِ على شاطِئِ البَحرِ، والنَّهرِ. ويُحِبُّ الأشجارَ والزُّهورَ والطُّيورَ. وكانَ قد نامَ في اللَّيلِ، وأبَواهُ يَنظُرانِ إليه بحنانٍ، وَأخذا يَتَحدَّثانِ فيمَا آلَتْ إليه حالُ الأندلُسِ في عَهدِ مُلوكِ الطَّوائف (أُمراء الدُّوَيْلات)، ثُمَّ في عَهدِ المُرابِطين الذينَ قَضَوْا عَلَى دُوَيْلات الطَّوائف، وهَزَمُوا الفِرَنجةَ في مَوقعةِ «الزَّلاّقة»، ثم في عَهدِ المُوَحِّدينَ الذينَ قَضَوْا عَلَى دَوْلَةِ المُرابِطينَ، وهَزَمُوا الفِرَنجةَ في مَوقِعَةِ «الأرْك». وقالَ أحمد لِنُعْمَى بِمَرارَةٍ:

- هَلْ استَطاعَ المُوَحِّدون أن يَمْنَحُوا أهلَ الأندلُس شُعورًا بِالأمنِ؟ هَاهُمْ أعوانُ الفِرنجة مِنَ الإسبان يَجوسُونَ فِي الأندلُس عِصابات إثْرَ عِصاباتٍ، يَقْطَعونَ الطَّريقَ، ويُخيفونَ النّاسَ، ويَنْهَبونَ الأقواتَ.

وتَنَهَّدَت نُعْمَى، وقَالت:

- لَو لَمْ يَكُن صَلاحُ الدّين الأيُّوبيّ في مصر، مَشغولاً بِحُروبِه مَعَ الصَّليبيّينَ فِي الشّام، لَمَدَّ إلَينا يَدَهُ لِنَجْدَةِ بِلادِ الأندلُس.

فقال لَها أحمد بحُزنٍ:

- المَأساةُ الكُبرَى مَأساتُنا يا نُعْمَى. فَمدينَتُنا «مَلَقا» عَلى البَحرِ فِي جَنوبِ الأندلُس، والفِرنجة دائمو الإغارةِ عَلَيْنا بِسُفُنِهم. وقَد صَارَت الأندلُس وفِي كُلِّ مَدينة حاكم وكُلُّ حاكمٍ يُدير ظَهْرَهُ لِلآخَر، وتوشِك الأندلُس أن تَضيعَ كُلّها من يَدِ المُسلمين.

ونَظَرَ أحمد إلى وَلدِه عبدِ اللَّه، وقَد رَقَدَ هَانِئًا فِي نومِه، وهَمَسَ بِقَلَقٍ:

- راقِبِي عبدَ اللَّهِ يا نُعْمَى مُنذُ اليَوم، فَإنِّي خَائفٌ عَلَيه مِنَ شُرُور الفِرُنجة.

فِي الصَّباحِ، سارَعَ عَبدُ اللَّه مَعَ شُروقِ الشَّمسِ، يُغادِرُ بَيْتَ أَهلِه فِي مَلَقا، وفِي يَدِه قَصبَةُ صَيدٍ. وجَلَسَ عَلَى شَاطِئِ النَّهرِ يَصيدُ سَمَكًا. وعِندَ الظُّهرِ، حَمَلَ مَا صَادَه مِن سَمَكٍ، وسارَ بَينَ الأَشجارِ يُنْصِتُ إلى أَصواتِ الطُّيورِ. وحِينَ مَرَّ بِبَبغاءٍ صاحَ بِه:

– طابَ صَباحُكَ يَا صاحِبِي.

وَدَخَلَ عَبدُ اللَّه حَديقَةً لِلزُّهورِ، سارَ فِي طُرُقاتِها، وقَعَدَ عَلَى قَدَمَيْه يَتَأَمَّلُ شُجَيْرَةً مُزهِرَةً، بَديعةَ الأَلوانِ. أَخَذَ يَتَحَسَّسُ بِرِفقٍ بالِغٍ ساقَها وغُصونَها، ويَلْمِسُ أَوراقَها، ويَتَأَمَّلُ تُوَيْجاتِ زُهورِها. وراقَه تَكوينُ الزَّهرَةِ، فَأَخَذَ يَرْسُمُ أَوراقَها وكَأْسَها وغُصْنَها.

نبوءة عالم

وكانَ أَحمدُ جالِسًا أَمامَ سورِ بَيتِه يَعمَلُ، حِينَ وَفَدَ عَلَيْه «ابنُ الرّومية» عالِمُ النَّباتِ العَطّارِ بإشبيلِيّة. فَتَرَكَ أَحمدُ عَمَلَه، ورَحَّبَ بِضَيفِه، وحَكَى لَه قَلَقَه عَلَى وَلَدِه عَبدُ اللَّه، الدّائِمِ التَّجَوُّلِ فِي الغابَةِ، وعَلَى شَاطِئِ النَّهرِ، وفِي البَساتِينِ، وحَدَّثَه عَن غَرامِه بِالزُّهورِ والأَشجارِ، وعَن خَوفِه عَلَى عَبدِ اللَّه أَن يَصيرَ يَومًا شَقِيًّا مِنَ الأَشقِياءِ، أَو يَذهَبَ ضَحِيَّةً لِهَؤلاءِ الفُرسانِ الإسبانِ الذينَ

يَجوبونَ الغابَات، وحَدَّثه عَن عُزوفِ وَلَدِه عَنِ العَمَلِ مَعَهُ فِي البَيْطَرة. فَضَحِكَ ابنُ الرّومية، وقالَ:

- لَوْ صَحَّ حَدْسِي يَا أَبا عَبدِ اللَّه، فابنُكَ لَن يكونَ بَيْطارًا مِثْلَكَ، مَا دامَ يُحِبُّ البَحْرَ والنَّهْرَ والغابَاتَ والأشْجارَ والزُّهور. كُنتُ مِثْلَهُ فِي صِبايَ. وأَظُنُّه سَيَصيرُ مِثْلِي عَالِمًا مِن عُلَماءِ النَّباتِ والصَّيْدلة. وَلَسَوْفَ يَأتي يَومٌ أَلتقي بِه، وأُغْرِيه بِصُحْبَتي، والتَّعلُّم عَلى يَدَيَّ.

فَقالَ أَحمدُ بِسَعادَةٍ وتَمَنٍّ:

- يا لَيْت.

ونَهَضَ ابنُ الرُّومية واقِفًا وقال:

- سَأَعودُ إلى إشبيلِيّة، فَتَعالَ يَومًا لزِيارَتي، وَسَوْفَ تَجِدُ عِندي سَوائِلَ جَديدةً لِعِلاجِ الحَيَوانات مِنَ النَّباتاتِ والمَعادِنِ.

وَوَدَّعَ أَحمدُ صاحِبَه، وانصرَفَ ابنُ الرُّوميّة مُبْتَعِدًا، وقَد طَرَحَ وَراءَ ظَهْرِه كَيسًا عامِرًا بِمَا جَمَعَه مِن نَباتاتٍ طِبِّيّة فِي غاباتِ مَلَقا، وتَوجَّهَ إلى جَبَلِ الفَتْح.

رسُوم بالألوان

عِندَ سَفْحِ جَبَلِ الفَتْح، أَخَذَ ابنُ الرُّوميّة يَجْمَعُ أَحجارًا بِعَيْنِها مِنَ الجَبَلِ، ورَأَى غُلامًا فِي العاشِرَةِ، جَالِسًا يَرْسِمُ فِي دَفْتَرٍ مِن الذّاكِرة. وَقَد أَوقَدَ نارًا بِجَانِبِه، تَفوحُ مِنْها، مَعَ الهَواءِ، رائِحَةُ سَمَكٍ يُشْوَى. واقْتَرَبَ ابنُ الرّوميّة مِنَ الغُلامِ، وَقَالَ وَهُوَ يَجْلِس:

- إنْ صَدَقَ حَدْسِي يا بُنَيَّ، فَأَنْتَ هُوَ عَبدُ اللَّه بن أحمد البيطارُ.

فَقالَ عَبدُ اللَّه بِدَهْشَة:

- نَعَم. أَنَا هُوَ. كَيْفَ عَرَفْتَ؟

فَقالَ ابنُ الرّوميّة ضَاحِكًا:

- مَلامِحُ وَجْهِكَ يَا بُنَيَّ وَشَتْ بِشَبَهِك بِأَبيكَ، وانْشِغالُكَ بِالرَّسْمِ أَكَّدَ لِي أَنَّكَ هُوَ عَبدُ اللَّه. فَقَد حَدَّثَنِي أَبوكَ عَن غَرامِكَ بِرَسْمِ الزُّهور. أَرِنِي مَا رَسَمْتَه يَا بُنَيَّ.

ورَأَى ابنُ الرّوميّة دَفْتَرَ عَبد اللَّه، وَقَد امْتَلأَ بِرُسومِ زُهورٍ مُتَعَدِّدَةِ الألوانِ. فَقالَ بِدَهْشَةٍ:

- عَجَبًا، كَيْفَ عَثَرْتَ عَلى كُلِّ هَذِهِ الألوان؟

فَقالَ عَبدُ اللّه بِزَهْوٍ:

– مِن أَصباغٍ اكتَشَفتُها بِنَفسِي، أَخَذْتُها مِن أَوراقِ النَّباتاتِ والزُّهورِ، ومِن لِحاءِ بَعضِ الأشجارِ، وَوَضَعتُها في بَعضِ المَحابِرِ. وحِينَ أَعودُ إلى البَيتِ، سَأُثَبِّتُ رُسومِي بِصَمغٍ مُخَفَّفٍ.

– ثم قال عَبدُ اللّه بِفِراسَة:

– لَقَد عَرَفتُك يا سَيِّدِي، فَأَنتَ عالِمُ النَّباتِ الإشبيليّ: «أبو العَباس أحمد بنُ محمد». ابنُ الرّومِيّة.

فَقالَ لَه ابنُ الرّومِيّة:

– صَدَقتَ يا عَبدُ اللّه. ويَقينًا أنَّ أباكَ حَدَّثَك عَنّي، مِثلَما حَدَّثَنِي عَنكَ.

وقال عَبدُ اللّه بِرَجاءٍ:

– لَيتَكَ تَقبَلُني يا سَيِّدِي، وتُعَلِّمُني ما تَعرِفُه مِن مَعارِفَ عَن عالَمِ النَّباتِ.

فقال له ابنُ الرُّوميّة:

– مَعمَلِي مَفتوحٌ لَكَ يا بُنَيَّ في إشبيليّة، لكِنَّني لا أَنصَحُكَ بِذَلِكَ الآنَ. ابقَ في مَلَقا بِضعَ سَنَواتٍ مَعَ الغاباتِ والأشجارِ

والزُّهورِ، والنَّهرِ والبَحرِ، وهَذا الجَبَلِ العَظيمِ، الذي فَتَحَ مِنه الأندَلُسَ «طارِقُ بنُ زياد».

فقال عبدُ اللّه بِدَهشَةٍ:

– ولِمَ لا تَصحَبُني مَعَكَ الآنَ يا سَيِّدي ؟

فقال ابنُ الرُّوميّة:

– يا عبد اللّه. هَذِهِ الألوانُ في دَفتَرِك، اكتَشَفتَها أنتَ بِنَفسِك، ولَم يَعرِفها أَحَدٌ مِمَّن هُم أكبَرُ مِنكَ سِنًّا، وأكثَرُ عِلمًا وخِبرَةً. ولا أُريدُ لَكَ الآنَ أن تَفقِدَ دَهشَتَكَ الأُولَى حِيالَ الأشياءِ، ومُحاوَلَتِكَ لِمَعرِفَةِ أسرارِها، حَتّى لا تَتَحَجَّرَ مَعارِفُكَ عِندَ حُدودِ ما أَعرِفُه أو يَعرِفُه غَيري عَن عالَمِ النَّباتِ.

وكانَتِ الأسماكُ قَد نَضِجَت عَلى النّار، فَأَخَذَ ابنُ الرّوميّة يَأكُلُ مَعَ عَبدِ اللّه، وهُوَ يُحَدِّثُه عَن أحجارٍ في جَبَلِ الفَتح، جاءَ لِيَجمَعَها كَي يَستَفيدَ في تَحضيرِ عَقاقيرَ لِعِلاجِ الناسِ والحَيَواناتِ.

ليلة الرّحيل إلى إشبيليّة

ومرّت السّنوات. وعزمَ عبدُ الله على الرّحيلِ وحْدَه إلى إشبيليّة، ليدرُسَ علمَ النّباتِ على يدِ ابنِ الرّوميّة. وحذّرته أمّه نُعمى قائلةً:

- احترسْ في طريقِكَ يا بُنيَّ من قُطّاعِ الطّريق.

فقال لها عبدُ الله مطمئنًا:

- لا تخافي عليَّ. فأنا في اللّيلِ سأنامُ بينَ أغصانِ الأشجار، وفي النّهارِ لن أسيرَ في طريقٍ يألفُه النّاس. ومعي خنجران، ويدي لا تُخطئُ الرّميَ بالخنجرِ، وأنا أجيدُ العدْوَ وفي خفّةِ الفهْدِ.

كانَ اللّيلُ قمريّ الضّوء. وكانت الأسْرة الصّغيرة جالسةً للعشاءِ في ساحةِ البيْت، في ليلةِ صيفٍ.

ومعَ بزوغِ الفجرِ، ودّعَ عبدُ الله أبويه، وسارَ غربًا في قلبِ الغابة، صوْبَ إشبيليّة. ومشى أبوهُ معه بعضَ الطّريقِ، وهو يقولُ له:

- لا تنسَ يا بُنيَّ أنّ ابنَ الرّوميّة عالمٌ أيضًا بحديثِ رسولِ الله، وبتفسيرِ كتابِ الله، علمه بالنّبات. فلا تنسَ حظّكَ منهما على يديْه. واكتُبْ إلينا دائمًا يا عبد الله مع بريدِ الخيلِ. وتعالَ لزيارتنا بينَ حينٍ وحينٍ.

معمل ومَشتل

في العامِ السّادس منَ القرنِ السّابعِ الهجريّ، التّاسعِ منَ القرنِ الثالث عشَر الميلاديّ، دخَلَ عبد الله مدينةَ إشبيليّة، وكانَتْ خاضعةً مثلَ ملَقا لحُكمِ المُوحّدين المغاربة. وتوجّه من فورِه إلى دُكانِ ابنِ الرّوميّة العطّار، فرحّبَ هذا به، وصحبَه إلى معْملِه الصّغيرِ خلْفَ الدُّكّان.

رأى عبْدُ الله المعْملَ الصّغير وقد ازدحَمَ بالمَناضد والدّوارق والأنابيبِ، والزُّجاجات المليئةِ بسوائلَ مُلوّنة، وقد أُلصِقَت بها أوراقٌ صغيرةٌ، كُتبَت عليها أسماءٌ مُختلفة. ورأى جهازَ تقْطير، وجهازَ ترْشيح، وجهازَ تكْثيف.

وصَحبه ابنُ الرّوميّة إلى مَشْتلٍ صغيرٍ وراءَ المعْملِ، له سقيفةٌ ظليلةٌ، وقد غُرِستْ نباتاتٌ في أرْضه، وأُخرى بأوانٍ منَ الخزَف. وكانَتْ بالمَشْتلِ حُجرةٌ صغيرةٌ مُلحقة، بها وسائدُ شرقيّة للجُلوس بُسطت فوقَ حصيرٍ ملوّن، ومنْضدةٌ واطئةٌ للكتابة. وهُنا وهُناك كانَتْ كُتُب ودفاتير في علمِ النّبات، وعلمِ الحديث، وعلمِ التّفسير، وجلَسَ عبدُ الله وابنُ الرّوميّة يسألُه عن أحوالِ أهلِه، وأحوالِ أهلِ ملَقا.

لماذا نكتب ونرسم؟

ودَخَلَ ابنُ الرّوميّة يومًا على عبد اللّه وهُوَ جالسٌ في المَعْمل، وفُوجِئَ به جالسًا يَرسمُ ما في المَعمَلِ مِن الأدواتِ والأجهزَةِ. فقالَ لَه بِدهْشَةٍ:

- ماذا تفعَلُ يا عَبْدَ اللّه؟

فقالَ عَبدُ اللّه:

- كَمَا تَرى يَا سَيِّدي. أرسِم مَا تَراهُ عَيناايَ فِي المَعْمَلِ. حتّى لاَ أنْسَى شَيئًا. فَفِي يومٍ مَا سَيكونُ لِي مَعمَلِي الخاصّ، وأَحتاجُ إلى هَذهِ الرُّسوم. وقَد يَنْسَى العَقْل. ولِذَلِكَ أكْتُب مَا أعْلَم، وأرسِمُ مَا أرَى.

وجلَسَ ابنُ الرّوميّة، وأَطرَقَ، ثم قَال:

- إنَّكَ تَتَصرَّفُ يَا بُنيَّ، وكَأنَّكَ فِي عَجَلةٍ مِن أمرِك، وكَأنّك عَلَى وَشْكِ الهِجرة عنّا يومًا مَا.

فَقال عَبدُ اللّه شارِدًا:

- لاَ أدري يَا سَيِّدِي. لَكِنَّنِي إذا ارتحلتُ يومًا، فَسَوفَ تَكونُ رِحلَتِي فِي طَلَبِ المَزيدِ مِنَ العِلْمِ.

وصَحِبَ ابنُ الرّوميّة تلميذَه إلى غُرفَتِه بالمَشْتَل، وجَلَسَا مَعًا كَصَديقَيْن، وقالَ ابنُ الرّوميّة:

- تذَكَّرْ يَا عَبدَ اللّه أن العلمَ مُشْتَبِكٌ بَعضُه مَعَ بَعض، ويُؤدّي بَعضُه إلى بَعض. الطِّبُّ مَثلاً: تَشخيصٌ وعِلاجٌ. والعِلاجُ: أعشابٌ وكيمياءٌ. وفِي العِلاج عَناصِرُ مِن النّباتِ والحَيَوان، والمَعادِن. ولِذَلِكَ لاَ بُدَّ لِلطَّبيبِ مِن مَعرِفَةِ عُلومِ النّبات، والحَيَوانِ، والمَعادِنِ، والكيمياءِ.

النَّبات يحسّ مثل الإنسان

وفُوجِئَ ابنُ الرّوميّة ذاتَ يَومٍ بِتِليمِذِهِ عَبدِ اللّه واقِفًا فِي المَشْتَلِ فِي ظَلامِ اللَّيلِ، يَقولُ لَه:

- إنَّني أُفكِّرُ يا سَيِّدي فِي أنَّكَ لَو نَثَرْتَ الأنوارَ فِي هَذا المَشْتَلِ، فِي اللَّيلِ، بالقَناديلِ والمِشْكَاوات، فَسَوفَ تَظَلُّ أكمامُ الزُّهورِ وَالأوراقِ المُنْطَبِقَةِ مَفتوحَةً لِلضَّوء، ويُواصِلَ النَّباتُ نُمُوَّهُ وحَيَاتَه وازدِهارَه وإثمارَه، كَما يَفْعَلُ فِي النَّهارِ.

فَقال لَه ابنُ الرّوميّة:

- إذن فَأَنْتَ تَحرِمُ النَّباتَ مِنَ النَّوْمِ والرَّاحَةِ يا عبدَ اللّه، وتَحرِمُه مِنَ التَّخَلُّصِ مِن سُمومِ الغِذاءِ فِي نَومِه. ماذَا لَو فَعَلْتَ ذَلِكَ بِإنْسَانٍ يا عبدَ اللّه؟

فَقالَ عَبدُ اللّه كَمَن يَكتشِفُ أمرًا غابَ عَنه:

- أعتَقِدُ أنَّه سَيُصبِحُ عَصَبِيًّا، ويُصابُ بالجُنون.

عِندَئِذٍ قالَ ابنُ الرّوميّة بِعِتابٍ:

- لِمَ تُريدُ إذَنْ للنّباتِ أن يُجَنَّ يا بُنَيَّ ؟ إنَّه يَتَأَلَّمُ مِثْلما يَتَأَلَّمُ الحَيَوانُ والإنسانُ. ألا تَرَى نَباتَ «الستّ المُستحيَة»، ماذَا يَحْدُثُ لَه عِندما تَقْتَرِبُ مِنه؟

فقال عبد اللّه بصوتٍ هامِسٍ:

- تَنطوِي زُهُورُه، وتَنطبِقُ أوراقُه. أَجَل. النَّباتُ يحسُّ مِثلما يحسُّ الإنسانُ والحَيَوانُ.

وقال ابنُ الرّوميّة:

- لَولاَ الضَّرورةُ يا بُنَيَّ، وأن الأحْيَاء يَستَمِدُّونَ حَيَاتَهُم مِن حياةِ الكَائِنات الأُخرى، لَما كانَ لَنا أَن نَقطَعَ وَرَقَةً، أَو نَقطِفَ زَهرَةً، أو نَجنِيَ ثَمَرَةً.

وصَمَتَ الاثْنَان. وجَلَسا وحيدَيْن فِي قَلبِ الظَّلامِ. تَفوحُ حَولَهُما رَوائِحُ الزُّهورِ، وكانَا يُنْصِتَان إلى أصواتٍ خَفِيَّةٍ، لِسَرَيانِ الغِذاءِ فِي عُرُوقِ النَّبَات.

العودة إلى ملقا

وصحِبَ ابنُ الرّوميّة معَه عبدَ الله في زيارةٍ إلى غرْناطة، ليَزوروا معًا حَديقةً للنّباتَاتِ النّادرَةِ في الدُّنيا، يَملكُها أميرُ غرْناطة «محمدُ بن علِيّ». ولَم يَكُنْ يَسْمح بدُخولِها لأحَد غيرِ العُلماء، منَ الأطبّاءِ والصّيادلَةِ ودارسي النّباتَات. وأَمْضَى عَبْدُ اللّه أيامَه فِي حَديقةِ الأمير، يرسمِ كُلّ النّباتَاتِ التي تَراها عَيْناه، ويدوِّن أوصافَها، ويُسجِّلَ ما يُحدِّثُه به ابنُ الرّوميّة، وبُستانيُّ الحَديقة، عَن خَصائصِ هٰذه النّباتَات في العِلاج. وكانَ عبدُ الله قَد بَلَغ منَ العُمرِ خَمسًا وعِشرينَ سَنَةً، حِينَ أخَذَ يَزْرَعُ بيَدِه نَباتَاتٍ نَادرَةٍ فِي حَديقَةِ الأمير.

وذاتَ يَومٍ فِي رُكْنٍ بِالحَديقة، جاءَ إلى الأميرِ مُحمد مَن يُخبرُه بغَزْوِ الفرنْجة لِمدينة مَلَقا. تَدفَّقُوا علَيْها مِن سُفُنِهم بِالبَحر، واقتَحَمُوا أسوارَها، وقَلْعَتَها، وهَبَّ أهلُ مَلَقا يَحملونَ السُّيوفَ والخَناجِرَ، يُقاوِمونَ الغُزاةَ.

وكانَ عَبدُ اللّه قَد تَوقّفَ عن الكِتابَةِ والرَّسمِ، وجَلَسَ شَارِدًا، وتَقدَّمَ مِنه الأميرُ محمد، وقالَ لَه:

- فيمَ شُرودُك يا عبدَ اللّه؟

عِندَئذٍ رَجفَ قَلبُ عَبدِ اللّه. ونَظَرَ بِقلَقٍ بالِغٍ إلى الأميرِ وأستاذِه، وقال:

- ثَمّةَ أمْرٌ حَدَثَ لِمَلَقا وَأَنْتُما تُخفيانِه عَنّي، وتُمَهِّدانِ لَهُ بِالحَديث عَن مَلَقا.

فَقَال لَه الأميرُ:

- صَدَقْتَ يا بُنَيَّ. فَقَد أغارَ الفرنْجةُ مِن البَحرِ عَلى مَلَقا، بِقِيادةِ ألفونسُو، وقاوَمَهُم أهلُ مَلَقا، فانْسَحَبَ الغُزاةُ بِسُرعةٍ، قَبلَ أن يَصطَدِموا بِجيُوشِ المُوَحِّدين.

حَدَثَ ذَلكَ قَبلَ يَومَيْن. ولَم أعرفْ الخَبَرَ إلاَّ اليَوْم، مَعَ بَريدِ الخَيْل.

وأطْرَقَ عَبدُ اللّه فِي حُزنٍ. كانَ يَعْرِفُ شَجاعةَ أهْلِ مَلَقا فِي مُواجَهَةِ الغَزْو. ودَبَّ فِي قَلبِه شُعورٌ بالخَوفِ عَلى أهلِه، فَقالَ لِلأمير:

- إن أعارَني الأميرُ جَوادًا، سارَعْت بِه إلى مَلَقَا، لأرَى أهلِي، وعَسَى ألاَّ يَكونَ أحدُهم قَد أُصيبَ بِسوءٍ. وَمَنَح الأميرُ جَوادًا لِعبدِ اللّه، فَطارَ بِه صَوْبَ مَلَقا، يُسابِق سَاعَاتِ النَّهار.

لَم تَعد الأندلس وَطنًا

وَجَدَ عَبدُ اللّه أَباهُ وأمَّه وأُختَه بِخَيرِ حالٍ، وعَلِمَ مِنهُم استِشهادَ بَعضِ أقاربه الأقرَبين ومن بَينِهم زَوجُ خالَته، وابنُه، وهُمْ يقاوِمُون الغُزاةَ. وحزن عَبدُ اللّه لِمَصرَعِ الرِّجالِ، وقالَ أبوه أحمد مُواسيًا:

- ماذا تَنتَظِرُ يا بُنَيَّ مِنَ الحَربِ سِوَى القَتلِ لِمَن قُتِلَ في القِتالِ، واليُتمَ لِمَن تَيَتَّمَ مِنَ الأَطفالِ؟!

وتَنَهَّدَ أحمد وَقال:

- لكِنّ أَهلَ مَلَقا سُرعانَ ما عادُوا إلى نَسْجِ الحَريرِ، وصُنْعِ مُنْتَجاتِ الزَّعْفَرانِ، والتِّين، والعِنَبِ، والرُّمّانِ، واللَّوز، والنارنج، وعَمَلِ الصّابون، والفخّار المُذَهَّب وعادَ الأولادُ إلى المَدارِسِ، والصّوفيةُ إلى التَكايَا والوُعّاظُ إلى المَساجِد.

وذَهَبَ عَبدُ اللّه مَعَ أُمِّه فِي اللَّيل، مُواسِيًا ابْنَةَ خالَتِه خَضْراء، التي فَقَدَت أَباهَا وأَخاهَا فِي القِتالِ، وصارَت يَتيمةً مِن بَعدِه.

وفَكَّرَ عَبدُ اللّه أن الأَرْضَ بالأندلسِ تَهتَزُّ تَحتَ أَقدامِ دولة المُوَحِّدين، فَقَد تَزايَدَت ضِدَّهم ضَرباتُ الفِرنْجة التِي تَكِرُّ وتَفِرُّ، وتَفَجَّرَت فِي وُجوهِهِم خِلافاتُ القَبائِلِ والعَصَبِيّات الجاهِلِيةِ القَدِيمة. وفَتَح عَبدُ اللّه قَلبَه لأَبيهِ وأمِّه، وراحَ يُحاوِلُ إِقناعَهُما بالهِجرَةِ وَالرَّحيلِ مَعَه إلى المَغرِب. فَقالَ لَه أَبوهُ أحمد غاضِبًا:

- قُلْ إنَّكَ تَهوَى الرَّحيلَ والأَسْفارَ. لِماذا لَمْ يُفكِر أُستاذُك ابنُ الرّوميّة فِي الهِجرةِ مِنَ الأَندلسِ مِثلَمَا تُفكِّر؟ ماذا يَحدُثُ للأندلس، لَو فَكَّر كُلُّ أَهلِها بَيتًا بَعدَ بَيتٍ فِي الهِجرةِ والرَّحيلِ؟

فَقالَ عَبدُ اللَّه لأبيه، وأُمُّه تَنظُر وتَسْمَع:

– أَبي. فِي يَدِكَ حِرفَةٌ، فَأَنتَ بَيْطارٌ بارِعٌ، ونَعّالٌ قَديرٌ. وسَتَجِدُ بِحِرفَتِكَ رِزْقَكَ أَينما حَلَلْتَ فِي دارٍ مِن دِيارِ الإسلامِ. وأَنَا بِحاجَةٍ إلى أَنْ أَعرِفَ مَعارِفَ لاَ يَعْرِفُها ابنُ الرّومِيّة فِي عِلْمِ النَّباتِ وهِيَ عِندَ عالِمِ النَّباتِ المَغرِبِيّ: «ابنُ الحَجَّاج». فَكَثيرًا مَا حَدَّثَنِي عَنهُ شَيخِي «ابنُ الرّومِيّة».

فَتَنَهَّدَ أَحمد وَقالَ لِعبدِ اللَّه:

-أَدرَكْتُ أَنّك لأَجلِ هذهِ الغايَةِ تَحمِلُنا عَلَى الرَّحيلِ يا عبدَ اللَّه. الأَمرُ للَّه، فَلا أُطيقُ بَقاءً وأَنتَ فِي دِيارٍ بَعيدَةٍ عَنّا، وتَعيشُ فِي بُعدِكَ قَلِقًا عَلينا، ولاَ أُريدُ أَن أَحمِلَكَ عَلَى البَقاءِ وأَحرِمَكَ مِن طَلَبِ العِلْمِ.

وابتَهَجَ عبدُ اللَّه والتَفَتَ إلى أُمِّه، لِيَسمَعَ رَأيَهَا، فَقالت:

– لاَ أُوَافِقُ عَلى الرَّحيلِ إلاَّ بِشَرطٍ. وشَرطِي يا عبدَ اللَّه، أَن تَتَزَوَّجَ قَبلَ رَحيلِنا مِن ابنَةِ خَالَتِك: «خَضْراء»، ونَصْحَبُها هِيَ وأُمُّها مَعَنَا إلى دِيارِ المَغْرِب.

وَدَاع .. إلى حين

تَزَوَّجَ عَبدُ اللَّه مِن «خَضْراءَ». وعادَ عبدُ اللَّه إلى إشبِيلِيّة فِي سَفْرَةٍ قَصيرةٍ لِوَداعِ أُستاذِه ابنِ الرّومِيّة. ولَم يكدْ عبدُ اللَّه يُلْقِي عَلَيه بِالتَّحِيّة، حَتّى قال لَه شَيخُه:

– لَهجَتُك يا عبدَ اللَّه لهجة مودِّع. وعطرُك يا عبدَ اللَّه عِطر عُرْس. اجلِس يا عبدَ اللَّه، وافْتَحْ لِي قَلبَك.

وجَلَسَ عبدُ اللَّه وقالَ:

– سَأُسافِرُ وَحدِي إلى المَغرِب، وأُدَبِّرُ لأَهلِي دارًا يُقيمونَ بِها، ولأَبِي دُكّانًا يُمارِسُ عمَلَه فيه، حتّى لاَ يُمارِسَ عمَلَه فِي البَيت مِثْلَما كانَ يَفْعَلُ فِي مَلْقَا. وَقَد جِئتُ مُوَدِّعًا لَك، وعَزَمْتُ على أن أَقضِيَ مَعَك لَيلَةً فِي المَشْتَل، فِي ضَوءِ القَمَرِ.

فِي الصَّباحِ، أَعطَى ابنُ الرّومِيّة لِعبدِ اللَّه رِسالَةَ تَوصيةٍ كَتَبَها لِصَديقِه أَبِي الحَجّاج، وقالَ لَه:

– أَبُو الحَجّاج عالِمٌ يا بُنَيَّ. وتَلامِذَتُه أَصدِقاؤُه، وهُوَ خَبيرٌ بِالمَغرِب وأَهلِه، وسَيُعاوِنُك لِتَسكُنَ دارًا مَعَ أَهلِك، وتَحصُلَ عَلى دُكانٍ لأَبيك.

ومَعَ الضُّحَى. عادَ عَبدُ اللّه مِن إشبيلِيّة إلى مَلَقَا، وأقامَ مَعَ أهلِه وعَروسِه أيامًا، وصَحِبَه الأهلُ والأقارِبُ إلى ميناءِ مَلَقَا مُوَدِّعينَ إلى حين. وحَمَلَتْه سَفينَةٌ شِراعِيَةٌ صَغيرةٌ صَوبَ الجَنوبِ إلى مَدينَةِ سَبتة. وامْتَلأَ الشِّراعُ بِريحٍ شَمالِيّة.

سَأُعَلّمك لُغَة اللاّتين

رَحَّبَ أبُو الحَجّاج بعبدِ اللّه، وقَرَأَ رِسالةَ صَديقه ابنِ الرّوميّة بِعَيْنَيْن مُنَدّاتَيْن بدُموعِ الحَنينِ، وراحَ يَسأل عبدَ اللّه عَن أحوالِ صَديقه ابنِ الرّوميّة، وأحوالِ أهلِ الأندلس في ظِلِّ دَولَةِ المُوَحِّدين المَغرِبيّة. وباتَ عبدُ اللّه لَيلَتَه عِندَ أُستاذِه الجَديد، يُحَدِّثُه فيما عَرِفَه مِنَ المَعارِفِ عَن عُلومِ النَّبات، إلى أن صاح ديكُ الفَجرِ. وقالَ أبُو الحَجّاج:

- يا بُنَيَّ. لَن تَجِدَ عِندي سِوَى القَليلَ مِنَ المَعارِفِ عَنِ النَّبات. وإن أرَدْتَ المَزيدَ يا عبدَ اللّه، فَعَليكَ بالتَّجَوُّلِ بِضْعَ سَنَوات في بِلادِ اليُونانِ والرُّومانِ، لِتَرَى النَّباتَات والأعشابِ هُناكَ بِعَيْنَيْك، وتُسَجِّلَ أوصافَها بِنَفسِك، ورُسُومَها بيدِك، وتَلْقى أحفادَ عالِمَيِ النَّبات: «ديسقُوريدس» و«جالينوس». وتَأخُذَ عَنهم مَعارِفَهم عَن النَّباتَات كِتابةً ومُشافَهةً.

فقال عبدُ اللّه بِلَهفَةٍ:

- كَمْ أوَدُّ ذَلِكَ. لَكِنَّني، لاَ أعرِف يا شَيخِي لُغَةَ اللاّتين.

فابتَسَمَ أبُو الحَجّاج، وقالَ:

- أنا أعرِفُها يا وَلَدي مِثل أهلِها. وسَأُعَلِّمُها لَكَ، مَعَ ما أعرِفُه مِنَ المَعارِف عَن النَّبات. ولَسَوفَ تُقيمُ مَعَنا في سَبْتَة بِضعَ سِنين، إلى أن تُجيدَ لُغَةَ اللاّتين.

واستَأجَرَ أبُو الحَجّاج لآلِ عبد اللّه دارًا مُشمِسَةً، طيبةَ الهَواء، واسعةَ السَاحة، تَحدُّها أربعُ طُرُقات، واستَأجَرَ لأبيه دُكانًا بِمَدخَلِ سُوقِ سَبْتَة، يَغدُو إليه الفُرسانُ ويَرُوحون. وبَعَثَ عبدُ اللّه، مَعَ بَريدِ البَحرِ، رِسالةً إلى أبيهِ في مَلَقَا، للقُدومِ إلى سَبْتَة.

العِلم لاَ وطن له

أقامَ عبدُ اللّه مَعَ أهلِه وزَوجِه في سَبْتَة. كانت سَبْتَةُ مَدينةً تُشبِه مَلَقَا، ولَها ميناءٌ على البَحر مِثلَ ميناءِ مَلَقَا. فَلَم يَشعُرْ أبوه أحمد، ولا أُمُّه ولاَ أُختُه، ولاَ عَرُوسه بِغُربَةِ المَكانِ. وراجَتْ حِرفَةُ أحمد البَيْطار في المَدينة، فاتَّسَعَ رِزقُه، وكَثُرَ قاصِدُوه، وتَفَرَّغَ

عبدُ اللّه لمُلازمَةِ أُستاذِه أبي الحَجّاج نصفَ النَّهار، ونِصْفَ اللَّيل، يَتعلَّم عَلَى يدَيْهِ مَعارِفَ النَّباتِ، ولُغَةَ اللاَّتين. وبَدَتِ الحياةُ طَيِّبَةً لعبدِ اللّه وأهله بِضْعَ سِنين.

وَعزَمَ عبدُ اللّه عَلَى الرَّحيلِ إلى بِلادِ الإغريقِ (اليُونان)، والرّومان (إيطاليا الآن)، فَلَم يَعُد فِي المَغرِبِ ثَمَّةَ مَزيدٌ منَ العلمِ يَبقَى لأجلِه، ولاَ جَديدَ من نَباتاتِ المَغرِب لاَ يَعْرِفُه، وقَد أَتْقَنَ اللُّغَةَ اللاّتينيَّةَ حَديثًا وكِتابَةً. وخَرَجَ الأهلُ وأَبُو الحَجّاج يُوَدِّعون عبدَ اللّه فِي ميناءِ سَبْتَةَ. وقال له أبو الحَجّاج:

- أَعلَمُ وأَنا أُوَدِّعُكَ يا عبدَ اللّه، أَنَّكَ لَن تَعودَ إلى المَغرِب، وقَد أَحْبَبناك، عَقلاً وخُلُقًا.

فقالَ له عبدُ اللّه:

- اللّه وَحدَه يَعْلَمُ يَا شَيخي مَتى يَلتَقِي الأحياءُ، ومَتَى يَفترِقونَ.

وتَضاحَكَ أبُو الحَجّاج، وهو يَنظُرُ إلى وَجهِ عبدِ اللّه، وقال:

- مِنْ حُسْنِ حَظِّكَ يا عبدَ اللّه أنَّ لَكَ وَجهًا أَشقَرَ، وعَيْنَيْنِ مُلَوَّنَتَيْن، سَيَحميكَ هَذا الوَجهُ فِي بِلادِ اليُونان والرُّومان من أذَى كَثيرٍ. وإنِّي أُشيرُ عَلَيكَ يا عبدَ اللّه، أن تَختارَ لِنفسِكَ اسمًا من

اسمائِهم تَتَسَمَّى به، فَلا يَعرِفُ العامَّةُ مَن أنتَ، ويظُنُّونَكَ واحِدًا مِنهُم. وإن لَم تَفْضَحكَ لَهجَتُكَ العَرَبيّة فَلَن يُصيبكَ مِنهُم سُوءٌ. ولاَ ضَيْرَ عَلَيكَ يَا عَبدَ اللّه مِن عُلَماءِ اليُونان والرُّومان، إن عَرَفُوا اسمَك ودينَك، ما داموا يَعرفونَ أنَّ العِلمَ هُوَ غايَتُكَ. فالعلمُ لاَ وَطَنَ لَهُ يا بُنَيَّ. ولاَ تُجاهِرِ الأقوامَ هُناكَ بِدينِك، واسمِكَ، ولُغَتِكَ. فَهُم جَميعًا فِي حَربٍ مَعَنا فِي الشّام، وفِي الأندَلُسِ، وفِي جُزُرِ البَحرِ الذي نُشرِفُ عَليه مِن سَبْتَة.

وقالَ عبدُ اللّه لأمِّه نُعْمَى وهُوَ يُوَدِّعُ أهلَه:

- الآنَ أودِّعُكُم وأنا مُطمَئِنُّ القَلبِ عَلَيكُم فِي سَبْتَةَ، وقَد عَوَّضَنَا اللّهُ بِها عَن مَلَقا.

فَقالَت له نُعْمَى وهِيَ تَتَنَهَّدُ:

- لَيسَ هَواءُ سَبْتَةَ مِثلَ مَلَقا، ولاَ البَحرُ، ولاَ الأشجارُ، ولاَ الخُضْرةُ، ولاَ الزُّهورُ، ولا الفاكِهة، أعانَنَا اللّهُ عَلَى الحَنينِ إلى مَلَقا.

فَضَحِكَ عَبدُ اللّه وقال:

- حينَ تَشتَاقينَ إلى مَلَقا يَا أُمِّي انظُري إلى خَضْراء، ونادَى عَلَيها باسمِها. فَفِي وَجهِها سِحرُ مَلَقا، وفِي اسمِها خُضْرَةُ الأندَلُسِ.

وعانَقَ عَبدُ اللّه أهلَه وأُستاذه مُودِّعًا، وعُيونُ الجَميعِ مُنَدّاةٌ بالدُّموعِ، وعَبَرَ الشاطِئَ إلى سَفينةٍ كَبيرةٍ، سَتَحملُه عَلَى صَفحَةِ بَحرِ الرّوم (البحر الأبيض المتوسط الآن)، وتَرسُو به يَومًا فِي ميناءِ «سالِرْنو» بِصقِلّيّة، ثم تَشُقُّ طَريقَها فِي البَحر إلى البُندُقِيّة (فينيسيا الآن)، لِيَهبِطَ عَبدُ اللّه في دِيارٍ غَريبةٍ لاَ عَهدَ لَهُ بِها، ورُبَّما لاَ تُتاحُ لَهِ مِنهَا أن يُرسِلَ رِسالةً إلى أحَدٍ بالمَغرِب أو بِالأندَلُس. وكَانَت خَضراءُ تَنتَظِرُ وَليدَها الثّاني، الذِي لَن يَشهَدَ عبدَ اللّه مَولِدَه.

رسالة مِن دمشق

مَضَت سَبْعُ سَنَواتٍ عَلى عَبدِ اللّه فِي دِيارِ اليُونان والرّومان، لَم يَسمعْ فِيها أَبُو الحَجَّاج، ولاَ أحَدَ مِن الأهلِ خَبَرًا عَن عبدِ اللّه. حَتّى خَشِيَ الكُلُّ أن يَكونَ قَد صارَ ذِكرى بَعيدة، وحُلْمًا عابرًا، ثُمَّ جاءَت رِسالَةٌ مِن عبدِ اللّه إلىَ أبِي الحَجّاج، حَمَلَها بَريدُ البَحر مِنَ الشّامِ إلى تُونس. وفَضَّ أبُو الحَجّاج الرِّسالةَ، وهُوَ يَشُمُّ فِيهَا عِطرَ صَديقٍ، وأَخَذَ يَقرَأُ:

«انتَهَتْ سَنَواتُ سِياحَتِي فِي بِلادِ اليُونان والرُّومان، وَقَد احتَفَى بِي يَا شَيخِي صَديقُكَ العالِمِ «دِيسقُورِيدس الصَّغير» كَمَا

تُسَمِّيه، وقبّلَ رِسالَتَك، وفَضَّها، وقَرَأَ ما بِها، ووَضَعَها عَلى رَأسِه، ولَم يُفارِقني طُولَ هَذِه السَّنَوات فَعَلَّمتُه مَا أعرِفُ مِن مَعارِفَ عَن النَّباتِ، وعَلَّمَني مَا يَعرِفُه، وازدَدنا مَعًا مَعرِفَةً بالتَّجَوُّلِ فِي أَنحاءِ البِلادِ اليُونانِيّة والرُّومانِيّة، وزادَ فَصَحِبَني إلى بِلادِ البيزنطيّين (آسيا الصغرى الآن)، فَسِحْنا بَينَ نَباتَاتِها عامًا كامِلاً، ثمَّ ودَّعَني عِندَ حُدودِ الشّامِ، فانحَدَرتُ جَنوبًا إلى دِمَشقَ الفَيْحاءَ. وهَأنَذا أكتُبُ إلَيك، وقَد عَزَمتُ عَلى الرَّحيلِ إلى مِصر، والاستِقرارِ بِها مَا بَقِيَ لِي مِنَ العُمر، وعَلى التَّرَدُّدِ عَلى الشّامِ طَلَبًا لِلمَزيدِ مِن

المَعرِفَةِ عَن نَباتَاتِ الشّامِ، خَاصّةً فِي غُوطة (بستان) دِمَشق التي تُحيطُ بِها كَالسِّوار..».

وطَوى أَبُو الحَجّاج رِسالةَ عبدِ اللَّه، وقَد استَراحَ قَلبُه، وهُوَ يُتمتِم: «أَحسَنتَ اختِيارَ مِصرَ خاتِمةً لِلمَطافِ يَا عبدَ اللَّهِ». وتَوَجَّهَ مِن فَورِه إلى دارِ أَحمد البَيْطار فِي سَبْتَة حامِلاً مَعَه رِسالَةَ عبدِ اللَّهِ.

لقاء ملكي

نَزَلَ عبدُ اللَّه إلى أَرضِ مِصر، ولَه مِنَ العُمرِ اثنَتانِ وثَلاثُونَ سَنةً، حَمَلَتهُ سَفينةٌ يُونانيّةٌ إلى الإسكندَريّة، ولَم يَلْبَث أَن ارتَحَلَ منهَا إلى القاهِرة الأَيّوبيّة. واستَأجَرَ دارًا فَسيحةً بِجَزيرةِ الرَّوضة، فِي قَلبِ النّيل، جَنوبيّ المَدينة. وكانَ قَد ادَّخَرَ مالاً، بِمُمَارَستِه لِمهنةِ الصَّيْدَلة، والبَيْطرة أَيضًا، وبَيعِه لِمَا يَجْمَعُه مِن نَباتاتٍ طِبِّيّة لِلعطّارينَ، فِي سَنواتِ اغترابِه بِبِلادِ اليُونانِ، والرُّومانِ، والبيزَنطِيّين.

ولَم يَكَدْ عبدُ اللّه يَستَقِرُّ لَيلةً فِي بَيتِه الجَديدِ، حَتّى فُوجِئَ بِجُنديٍّ أَيّوبيّ يَدعوهُ إلى لِقاءِ المَلِكِ الكَامِلِ فِي قَصرِه بِحَيّ

الأَزْهَر، فَدَهِشَ عَبدُ اللَّه، وأَشفَقَ عَلى نَفسِه مِن لِقاءِ المَلك، واستَمْهَلَ الجُنديَّ بُرهةً يَرتَدي فِيهَا ثِيابًا تَليقُ بِاللِّقاءِ المَلَكِيّ. ثُمَّ رَكِبَ مَعَهُ فَرَسًا قَدَّمَهُ إليْه، وسارَا إلى حَيِّ الأَزْهر.

استَقبَلَ المَلِكُ الكَامِلُ عبدَ اللَّه، وفاجَأه بِأَنَّه يَعرِفُ عَنهُ أَنَّه قَدِمَ إلى الإسكَندَريّةَ قَبلَ شَهرٍ، وعَلى سَفينةٍ يُونانِيّة، وأَنَّه عَلى شَيءٍ مِنَ الثَّراء، فَأدرَك عَبدُ اللَّه أَنّ لِلمَلِكَ عُيونَه التي لاَ يَخْفَى عَنها شَيءٌ مِن أُمورِ الغُرَباءِ والوَافِدينَ، خاصّةً وأَنَّ مِصرَ فِي حُروبٍ مَعَ الصَّلِيبيّينَ. وفَتَحَ عبدُ اللَّه قَلبَه لِلمَلِكِ الكامِلِ، فَذَكَرَ لَه كُلَّ شَيءٍ عَن حَياتِه، ورِحلَتِه مِن مَلَقا، إلى سَبْتَة، إلى بِلادِ اليُونانِ والرُّومانِ والبيزَنطِيّينَ، والشّامِ، وأَنَّ ثَراءَه جَناهُ مِن عَمَلِه فِي الصَّيدَلةِ والبَيْطَرة، وبَيعِ النَّباتَاتِ الطِّبّيّة لِلعَطّارين. فَقالَ لَه المَلِكُ الكامِلُ:

- صَيدَلِيٌّ أَنتَ إِذَن، وعالِمُ نَباتٍ.

فقالَ لَه عَبدُ اللَّه:

- نَعَم. واسمِي هو «عَبدُ اللَّه بنُ أحمد بنُ البَيْطار»، وكُنْيَتي هِي: «أَبُو محمد» ولَقَبِي هو: «ضِياءُ الدِّين»، لَقَّبَنِي بِه أُستاذي الأَوَّل: أَبُو العَبّاس الأَمَوِيّ الإشبيلِيّ.

فقالَ الملِكُ الكَامِلُ بانبِهارٍ:

- ابنُ الرّوميّة؟!

فقالَ لَه عَبدُ اللّه:

- نَعَم. أتَعرِفُه يا مولاي؟

فَقالَ المَلِكُ الكَامِلُ:

- ومَن لا يَعرِفُ فِي زَمانِنا العالِمَ ابنَ الرّوميّة يا أبَا محمد. بَينِي وبَينَه رَسائِلُ فِي مَسائِلَ فِي الحَديثِ والتَّفسيرِ.

واستَأذَنَ عَبدُ اللّه المَلِكَ الكامِل في أن يُرسِلَ فِي طَلَبِ أهلِهِ مِن سَبْتَة، فَأذِنَ لَه. وعادَ عَبدُ اللّه يَقولُ:

- وإن أذِنَ لِي مولاي، ألْحِقني بِزُمرَةِ الصَّيادِلة العَشّابين وبالبيمارستان (المُستشفى) النّاصرِيّ.

فَقالَ لَه المَلِكُ الكامِل:

- اذهَبْ غدًا، وسَلِّم نَفسَكَ لِقَيِّم (المُدير) البيمارستَان النّاصرِيّ، وسَيُخبِرُني بِمدَى عِلْمِكَ وخبرَتِك.

فِي اللَّيلَةِ التّالية جَلَسَ عَبدُ اللّه فِي دارِه بِجَزيرةِ الرَّوضة، المُطلّة عَلى نَهرِ النِّيل، والأرضِ الخَضراءِ الفَسيحة، والأهرامات غَربِيّ النَّهر، يَكتُب رِسالةً إلى أهلِه بِسَبْتَة يَستَقدِمهُم إلى القاهِرة، عَلى أوَّلِ سَفينةٍ كَبيرةٍ، تَصمُدُ لأمواجِ البَحرِ، فَقَد استَقَرَّ بِه المُقامُ فِي القاهِرة، وصارَ واحِدًا مِنَ الصَّيادِلة العَشّابين فِي البيمارِستَان النّاصِرِيّ.

وفَرِحَ عَبدُ اللّه، وفَرِحَ الأهلُ، بِاللّقاءِ، وجَلَسَ عبدُ اللّه فِي ضَوءِ مِشكاة، وحَولَه الأهلُ يَنظُرونَ إليْه بِشَوقٍ، فِي لَيلةِ شِتاءٍ، وهوَ يَقرَأُ رِسالَتَيْن حمَلَهُما بَريدُ البَحرِ مِن شَيخَيْه: ابنُ الرّومِيّة، وأبُو الحَجّاج.

العُلماء مُلوك لِكلّ العُصور

ولَم تَمضِ شُهور، حَتّى دَعا المَلِكُ الكامِل عبدَ اللّه إليْه، ودَعاه لِلجُلوس مَعَه عَلى مَقاعِدِ المَلِك، فَتَحَرَّجَ عبدُ اللّه. فَقالَ لَه المَلِكُ الكامِل:

- اجلِس يا عبدَ اللّه ولا تَتَحَرَّج. فَنَحنُ نَعرِفُ أقدارَ العُلَماء. العُلماءُ مُلوكٌ لِكُلِّ العُصور يا عَبدَ اللّه.

وجَلَسَ عبدُ اللّه مَعَ المِلِك الكامِل، فعادَ هَذا يَقولُ لَه:

- أَخْبَرَنِي أمسُ قيمُ البيمارستَان النّاصرِي، أنّ مصرَ لَم تعرف قَبْلَكَ عالمًا، مثلَك، بالصَّيدلةِ والأعشابِ وتركيبِ العِلاَجات. ولِذَلك يا عبدَ اللّه ستَكونُ منَ الغدِ رَئيسًا لِلعَشّابينَ فِي مصرَ، وقيِّمًا عَلى خزانَةِ العَقاقيرِ بالبيمارستَان.

وشكَرَ عبدُ اللّه المَلِكَ الكاملِ، وصَمَتَ المَلِكُ لَحظةً، ثُم قال:

- أشِرْ عَلَيَّ يا عبدَ اللّه فِي أمرِ استيلاءِ «جَان دِي بريّين» الطرْنسي على مَدينَة «دمْياط». فَقَد استَمَعتُ لرأي قَادَة الحَرب، وَوَجَبَ عَلَيَّ أن أستَمعَ لِرأيِ العُلماءِ. كَيفَ يُمكِنُ لَنا أن نَستَردَّ «دِمْياطَ».

كانَ عبدُ اللّه يَعلَمُ، مَدَى حُزنِ النَّاسِ عَلى ضَياعِ دِمْياط، ويَعلَمُ أنَّ المَلِكَ الكاملَ قَد بَنَى الاستحكاماتِ جَنوبِيّ دِمْياط إلى المَنْصورة، لَكِن النَّهرَ لاَ يَزالُ يَتَدفَّقُ، ويُمكِنُ أن تَجتازَه سُفنُ الصَّليبيّينَ إلى الجَنوب. وقالَ عبدُ اللّه:

- يَا مولاي. أغرق سُفُنًا فِي النَّهرِ جَنوبِيّ دِمْياط. فَنَمنَعَ بذَلكَ سُفُنَ العَدُوِّ مِنَ التَّقَدُّم، ويَظَلَّ النَّهرُ يَجري فَلا يُغرِق مَا وَراءَه مِن أرضِ مِصر.

مِن حَرب إلى حَرب

رَحلَ الغُزاةُ الفرنسيّون بِالصّلح عَن دِمْياط، بَعدَ أَن قَتَلُوا وأَحرَقُوا ونَهَبُوا ثَلاثَ سَنَوات. وتَفرَّغَ المَلِكُ الكامِلُ لإعادَةِ بناءِ مِصرَ، بِتَحسينِ الريِّ، وإقامَةِ مَعاهِدَ جَديدَةٍ لِلعِلمِ، وتَرويجِ الحِرَف، وتَكديسِ السِّلاحِ، تَحَسُّبًا مِن عودَةِ الغُزاةِ الصَّليبيّين قَادِمينَ مِن أوربا.

وجاءَت الأخبارُ يَحملُها بَريدُ الحَمامِ، بِغَزْوِ الهنغاريّين (البلغاريّين الآن) للشّام، وغايَتُهم دِمَشق الفَيْحاء. شَعَرَ عبدُ اللّه بِأنَّ قَلبَه يَتَمزَّقُ بينَ المِحَن التي تَنزلُ عَلى رُؤوسِ النّاسِ فِي دِيارِ الإسلامِ، فِي الأندَلُس، ومِصرَ، والشّام.

ورحلَ عبدُ اللّه مَعَ المَلِك الكاملِ وجَيشِه لِرَدِّ العُدوانِ عَن دِمَشق، فَسوفَ يَكونُ الجَرحَى بِحاجَةٍ إلى خِبرَتِه بِالصَّيدلةِ وبِالعِلاجِ.

ونَجحَ المَلِكُ الكاملُ فِي كَسرِ شَوكَةِ الحَملةِ الصَّليبيّة الهنغاريّة، فَأَخَذَ عبدُ اللّه يَستَفيدُ مِن أيّامِه بِدَمشقَ فِي جَمعِ الأعشابِ والنَّباتاتِ فِي الشّام.

الكتاب الأول

وعادَ عبدُ اللّه مَعَ المَلِك الكامِلِ إلى القاهِرة، وكانَ قَد بَلَغَ مِنَ العُمر أَربَعينَ سَنَةً. ودَعا إليه تِلميذَه «إبراهيم ابن موسى»، وأَخَذَ يُملي عَليه كِتابًا بِعُنوان: «شَرْح كِتاب دِيسقورِيدس في الأعشاب». فقالَ لَه إبراهيم:

- عَفْوًا يا شَيخي. إنَّكَ تَعرِفُ أَكثَرَ مِمَّا عَرِفَه دِيسقورِيدس وجالِينوس عَن النَّبات.

فقالَ لَه عبدُ اللّه:

- يا إبراهيم. علينا أن نَبْدأَ بالينابيع، ثُم نَرتَقي منها إلى مَا نَعرِفُه نَحنُ. لَقد كَتَبَ العَرَبُ وغَيرُ العَرَبِ فِي الأعشابِ مائةً وخَمسينَ كِتابًا. لَكنَّنا لَن نَتَوَقَّفَ مِنْها إلاّ عندَ كِتابِ دِيسقوريدس، لأنَّه، فيما أَعلَمُ، النَّبعُ الأَوَّلُ لِكُلِّ ما كَتَبَه العَرَبُ، وقَد أَساءَ الكَثيرونَ شَرْحَه، وفَهمَه، وتَرجَمَةَ ما فيهِ مِن مُصطلحاتٍ وأَسْماء.

اقتسام القدس

ومرةً أُخرَى عادَ الصَّليبيّون مِنَ الألمان والصقلّيين بِقيادَةِ «فردَريك الثّاني» يَغزُون أَرضَ فلسطين، وكانَت غايتُهم هي استِردادُ بَيتِ المَقدِس من أَيدي المُسلمين، وكانَ «صَلاحُ الدِّين الأَيّوبيّ» قَد استَعادَه مِن الصَّليبيّين قَبلَ أربَعينَ سَنَةً.

وقالَ «عبدُ اللّه» لِلمَلِك الكامِلِ بِدَهشَةٍ، وهُمَا جالِسانِ مَعًا فِي قاعَةِ العَرْش:

- ماذَا يُريدُ الفِرِنْجة، وطَريقُ الحَجِّ لِلقُدسِ مَفتوحٌ لَهُم مُنذُ أَربَعينَ سَنَةً؟

فَقالَ المَلِكُ الكامِلُ:

- إنَّهُم يَبغُونَ إعادَةَ مَملَكَةِ أُورشَليم فِي القُدس مَرَّةً أُخرَى. ولَقَد أَمَرتُ بإِعدادِ الجَيشِ لِلحَرب. وسَوفَ تَكونُ مَعِي يَا عبدَ اللّه، فِي زُمرَةِ الأَطِبّاءِ فَالمَرضَى والجَرحَى سَيكُونونَ بِحَاجَةٍ إِلَيكُم.

ومَرَّةً أُخرَى عادَ عبدُ اللّه إلى الرَّحيلِ مَعَ المَلِك الكامِلِ إلى فلسطين، وحِينَ عادَ كانَ وَجهُه حَزينًا، وبَدَا لأَبيهِ أحمد كَسير

الخاطرِ. جلَسَ عبدُ اللّه إلى أبيهِ أحمد، أمامَ دُكّانه للبَيْطرة، بحَيِّ الرَّوْضة، حيثُ يَروحُ الفُرسانُ إلى ثُكناتِهِم ويَغْدونَ. كانَ أحمد البَيْطار قَد بَلَغَ مِنَ العُمرِ ستّين سَنَةً. وكانَ يَبدُو مُرهقًا، وهو يَطرقُ بِمِطرَقَةٍ حَدْوَةً لِحِصانٍ عَلى سِنْدانٍ. ونظَرَ عبدُ اللّه بِحُبٍّ وإشفاقٍ إلى أبيهِ وقالَ:

- آنَ لَكَ أن تَسْتَريحَ يَا أبِي.

فَقالَ له أحمد:

- لا تُحَدِّثني عَنِ الرَّاحَةِ، وخَبِّرْني. ماذا فَعَلْتُم لبَيْتِ المَقدِسِ؟

فقالَ عبدُ اللّه باضطِرابٍ:

- لسنَا فِي زَمانِ صَلاحِ الدِّين يا أبِي، فَأُمَّةُ الإسلامِ شِيَعٌ وفِرَقٌ ودُوَلٌ. ولَم يَجِدِ المَلِكُ الكامِلُ مَفرًّا من عَقْدِ الصُّلحِ بَينَه وبَينَ المَلِك «فرِدْريك الثّاني»، عَلى.. اقتِسامِ القُدس!!

فَصاحَ أحمدُ البَيْطار بلَوعَةٍ:

- اقتِسامُ القُدس؟!

فَقالَ عبدُ اللّه بِحُزنٍ:

- نَعَم. للفرِنْجة نِصفُ مَا بالقُدس مِن أماكِنِ المَسيحيّةِ المُقدَّسَةِ، ولَنَا النِّصفُ الآخَرُ.

وعادَ عَبدُ اللّه يَقولُ، وهُوَ يَرَى أباهُ مُصْفَرَّ الوَجْهِ، فِي ساعَةِ غُرُوب:

- عَلَى أيِّ حالٍ يا أبِي، لَم يَنْجَح الصَّليبيّون فِي إقامَةِ مَمْلَكَةِ أُورشَليم.

فَصاحَ أحمدُ فِي وَجهِه قَائِلاً:

- أَقامُوهَا عَلى النِّصفِ يَا عبدَ اللّه. لاَ تَخْدَعْ نَفْسَكَ أنت والمَلِك الكامِلِ يَا بُنَيَّ. فَلَن يَنْخَدِعَ النَّاسُ بِأيِّ تَبريرٍ.

وعادَ الإثْنانِ إلى دارِهِما بالرَّوْضةِ، وأحمدُ يُرَدِّدُ طُولَ الطَّريق:

- سامَحَكَ اللَّهُ أيُّها المَلِكُ!! سامَحَكَ اللّهُ أيُّها المَلِكُ!!

يومًا ما ستَعود القُدس

فِي اللَّيلِ، جلَسَ أحمدُ تَحتَ شَجَرةٍ، فِي حَديقةِ البَيتِ. وسَمِعَه عَبدُ اللّه يَقولُ، مُتَغَنِّيًا بِهَمْسٍ:

– بَيتُنا عَلى النَّهرِ. وعَلى النّهرِ سَأَجلِسُ، وأَصيدُ السَّمَكَ، مِثْلما كُنَّا فِي مَلَقَا. عِندَما كُنتُ صَغيراً، كُنتُ أَصيدُ السَّمَكَ. وغَدًا سَأَصيدُ السَّمَكَ مِثْلَما كُنتُ صَغيراً.

والْتَفَتَ أَحمدُ إلى عبدِ اللَّه، وقالَ:

– سَتُتاحُ لِي الفُرصَةُ، وأَنا أَصيدُ السَّمَكَ، لأُفَكِّرَ فِي مَصائِرِ المَدائِنِ والدُّوَلِ.

فقالَ لَه عبدُ اللَّه مُواسيًا، بِحُزنٍ:

– الأَيّامُ دُوَلٌ يا أَبِي. سَتَعودُ القُدسُ يومًا ما، يَومًا مَا سَتَعودُ القُدسُ.

آه .. ملقا

فِي اليَومِ التالِي، جَلَسَ أَحمدُ البَيْطار عَلى شَاطِئِ النَّهرِ بِالرَّوْضَة. يَصيدُ السَّمَكَ بِسِنّارة، وبَدا شاحِبَ الوَجهِ، يَتَفَصَّدُ العَرَقُ غَزيرًا مِنهُ، وشَعَرَ بالتَّعَبِ، فَأَخَذَ يَتَراجَعُ فِي جِلْسَتِه بِصُعوبَة. وبَدا يَفتَحُ فَمَهُ ويَشْهَقُ ويَزفِرُ لاهِثًا، وعَيناهُ جاحِظَتان، وهُوَ يُتَمتِمُ بِخُفوتٍ:

– آه .. مَلَقا .. مَلَقا ..

وانزلَقت مِن يَدِه غابَةُ الصَّيدِ فِي النَّهرِ، وأَخَذَت تَبتَعِدُ، بَينَما استَلقَى هُوَ بِطُولِه عَلى الشَّاطِئِ، وقَد كَفَّ تَماماً عَن الحَرَكَةِ. وعِندَما جاءَ عبدُ اللَّه لِيَعودَ بِه عِندَ الظُّهرِ، وَجَدَه قَد أَسلَمَ الرُّوحَ لِبارِئِها.

لم يعد لنا سوى العلم

جاءَتِ الأَخبارُ إلى مِصر، بِسُقوطِ قُرطُبَةَ فِي يَدِ الفِرنجة، وسُقُوطِ «مَيُورقة» بَعدَ زَوالِ دَولَةِ المُوَحِّدِينَ. واستَولَى بَنُو الأَحمَرِ عَلى مَدِينَةِ مَلَقَا، ومِن جَدِيد عادَت دُوَلُ الطَّوائِفِ القَبلِيّة والطائِفِيّة، تَحكُمُ مَا بَقِيَ مِن بِلادِ الأَندَلُس الذي لَم تَنَلْهُ جُيوشُ الفِرنجَة بَعدُ. وعاشَ عبدُ اللَّه حُزنَيْنِ: حُزنُهُ عَلى أَبِيهِ، وحُزنُهُ عَلى ما أَصابَ الأَندَلُس، والقُدس.

وعادَ عبدُ اللَّه للارتِحالِ إلى دِمَشق. وقالَ لِزَوجَتِه خَضراء:

- لَم يَعُد لَنا سِوَى العِلمُ، نَتَعَزَّى بِه ونَتَصَبَّر. وقَد كَبِرَ الأَولادُ يا خَضراءُ وابنَتُنا «رَنْدَة» صارَت عَروساً، والأَعشابُ يا أُمَّ رَنْدة تَدعُونِي إلَيها فِي غُوطة دِمَشق، فَقَد غَرَستُها هُناكَ بِيَدِي.

ابن الرومية في مصر

ووفَد ابنُ الرّوميّة إلى مِصر، وهو فِي طَرِيقِ عَودَتِه مِنَ الحَجِّ، لِيَلْقَي تِلمِيذَه عبدُ اللَّه، فَوَجَدَه غائِباً فِي دِمَشق. وتَرَكَ ابنُ الرّوميّة لِعَبدِ اللَّه فِي بَيتِه، كِتابَيْنِ من تَأليفِه هُما: «الأَدوِيَة المُفْرَدة»، و «الرِّحلةُ النَّباتيّة»، وواسَى نُعْمَى فِي زَوجِها، وداعَبَ أَبناءَ عَبدَ اللَّه وبَناتِه. ثُمَّ تَوَجَّهَ فِي يَومِه لِزِيارَةِ المَلِك الكامِلِ.

ورَحَّبَ المَلِكُ الكامِلِ بِعالِمِ الأَندَلُس ابنِ الرّوميّة، ودَعاهُ لِلبَقاءِ مَعَه فِي دِيارِ مِصر، فَقالَ لَه ابنُ الرّوميّة:

- لا حَياةَ لِي بَعِيداً عَن إشبيليّة أَيُّها المَلِك، وسَأَعودُ إلَيها مِن غَدِي. وقَد جِئتُ زائِراً لَكَ، ولأُقَدِّمَ لَكَ كِتابَيْنِ لِي، أَحَدُهُما: «نَظمُ الدّرارِي فِي الحَدِيث»، والآخَرُ: عشرةُ أَجزاء فِي «تَفسِيرِ القُرآن الكَرِيم».

وقَضَى ابنُ الرّوميّة يَومَه مَعَ المَلِك الكَامِلِ، يُحَدِّثُه عَن الأَندَلُس الخَضراء، مَا بَقِيَ مِنهَا فِي أَيدِي العَرَب، ومَا ضاعَ، ولِمَ ضاعَ!!

مِن ملك .. إلى ملك

كانَ عبدُ اللّه قد بَلَغ منَ العُمر اثنَتَين وخَمسين سَنَةً، وكانَ لا يَزالُ بِدمَشق حينَ جاءَته الأخبارُ بِوَفاةِ المَلك الكَامِلِ، فَسَعَى عبدُ اللّه إلى ابنِ أخيهِ المَلك الصَّالح «نَجم الدِّين أيوب»، في قَصرهِ بِدِمَشق، مُعَزِّيًا. وقالَ المَلك الصَّالح لعبدِ اللّه:

– آلَ الأمرُ في مصرَ إلى ابنِ عَمِّنا المَلك العادل ابنِ المَلك الكَامِلِ يَا أبا مُحمد. وإنْ شِئْتَ لَحِقْتَ بِه. وإنْ شِئْتَ بَقيتَ مَعي:

وآثرَ عبدُ اللّه البقاءَ إلى حِينٍ مَعَ المَلك الصَّالح.

وعادَ عَبدُ اللّه مَعَ المَلك الصَّالح إلى مِصرَ، بَعدَ عَزلِ المَلك العادلِ لسُوءِ سُلوكه وسيرَته في تَصريفِ أُمورِ المُلك، فَوَجَدَ أنَّ أُمَّه قَد لَحِقَت بِأبيه، ورقَدت معهُ في قَبرٍ واحدٍ. وأنَّ أولادَه قَد تَزَوَّجُوا وصارَ لِكُلٍّ مِنهُم بَيتٌ.

عودة القدس

نَجَحَ المَلك الصَّالح أيّوب فِي تَوحيدِ أُمور الشّام ومصر تَحتَ رايةِ مُلكه وصَفّى كُلَّ الخلافات بَينَ أُمَراء البَيت الأيّوبيّ في الشّام، وفِي مِصر. وكانَ أَجَلُ الهُدنة بَينَ عَمِّه المَلك الكَامِلِ،

وفردريك الثّاني، قَد انتَهَى بِمضيّ عَشرِ سَنَواتٍ. وطَمعَ الصَّليبيّون في نِصفِ القُدسِ الذي بَقِيَ فِي يَدِ المُسلمينَ، فَأغارَ الإنجليزُ بِقيادَةِ «ريتشارد» صاحب «كورنويل» عَلى القُدس، فَنَهَض إليه المَلك الصّالح الأيّوبيّ بِجَيشٍ مُوَحَّدٍ من أُمَراءِ مِصرَ والشّام ورَدَّ غارَته، وحَرَّرَ القُدسَ كُلَّها مَرَّةً أُخرَى.

وخَلاَ قَلبُ عبدُ اللّه للعلم، فَجَلَس إلى تلميذِه «إبراهيم بن موسى»، وبَينَهُما وَرَقٌ وأقلامٌ ومِحبَرة، عَلى حَصيرٍ تَحتَ شَجرةٍ بِحَديقةِ بَيتِه، وقالَ لَه:

- سَأُملي عَلَيك يا إبراهيم كِتابًا أَظُنُّه آخرَ ما سَأُمليه مِن كُتُب، بَعدَ كُتُبِي الثَّلاثة الأُخرى السّابِقة: «المُغْنِى فِي الطِّبّ»، و «الأفعال الغَريبة والخَواص العَجيبة»، و «شَرح ديسقوريدس». فَضَعْ عَلى وَرَقةٍ مُفْرَدةٍ يا إبراهيم هذَا العُنوان: «الجامِعِ لِمُفردات الأدوِية والأغذِية».

فَكَتَبَ إبراهيم عُنوانَ الكِتاب الجَديد، وقالَ:

- إنْ أذِنْتَ لِي يا سَيّدي حَدّثْتَنِي عَن كِتابِكَ قَبلَ أَن تَشرَعَ فِي إملائِه، لأَعرِفَ كَيفَ سَيَكونُ نَسَقِي فِي كِتابَتِه.

فَقالَ عبدُ اللّه:

- إنّه كِتابٌ يا إبراهيم، أَضَعُ فيه خُلاصةَ ما عَرَفه الأَقدَمُون مِن قَبلِي، والمُعاصِرُون لِي، وفِي طَلِيعَتهِم: الزَّهراوِيُّ، والغافِقيُّ، وديسقوريدس، وجالِينوس، والإدريسِيّ، وأبقراط، وما خبرتُه بنَفسِي عَن كُلِّ مَا قالُوه. وسنُجري تَرتيبَ هذَا الكِتابِ أَبجَدِيًا عَلى حُروفِ المعجم، وفِقَ أَسماءِ النَّباتاتِ والمعادِنِ والحَيَوانات، وأَرجُو مِنَ اللّه أَن يَجعلَه تاجَ كُتُبِي.

تاج الكتب

بَلَغَ عبدُ اللّه مِنَ العُمرِ سِتّينَ سَنَةً، وذَهَبَ عبدُ اللّه إلى صَديقه المَلِك الصَّالِح «نجم الدين أيوب»، وجلَسَ إلَيه، وقَدَّم لَه كِتابَه الجَديد: «الجامِع لِمُفردات الأدوِيَة والأغذِيَة». فابتَهَجَ بِه المَلِك، وأَخَذَ يُقَلِّبُ سَعيدًا فِي صَفحَاتِه وهوَ يَقولُ:

- كَم صِنفًا مِنَ الأَدوِيَةِ فِي كِتابِكَ يا أبا مُحمد؟

فَقالَ عبدُ اللّه:

- ألفٌ وأربعمائةُ دواءٍ يا مولاي، مُرَتَّبَةً عَلى حُروف المعجم، بينَهُما ثَلاثمائة صِنفٍ مِنَ الدَّواء، لَم يَتناوَلْها عالِمٌ قَبلِي. وقَد ذَكَرتُ اسمَ كُلِّ دَواءٍ مِنهَا بالعَرَبِيّة، والإغريقِيّة، والفارسِيّة، والإسْبانِيّة الدّارِجة. وقَد ذكرْتُ مَعَ كُلِّ دواءٍ يا مولاي رَأيِي فيه، وآراءَ جميعَ مَن لَهُمْ رَأيٌ فيه، وعَدَدُهم مائةٌ وعشرونَ عالِمًا عَرَبِيًّا، وعِشرونَ عالِمًا مِنَ الفِرنْجة.

فقالَ المَلِكُ الصَّالِح بإعجاب:

- هَذِه هِيَ واللّه أمانةُ العُلَماء. فاللّهُ قَد أَمَرَنا بِرَدِّ الأَماناتِ إلى أَهلِها. ومَن رَدَّ الأَمانَةَ نسبةُ كُلِّ رَأيٍ إلى صاحِبِه.

ثُمَّ قالَ المَلِك الصَّالِح لعبد اللَّه:

- ماذَا يَقولُ كِتابُك لَنا عن «اللُّبان» يا أبَا محمد؟

فَقالَ عبدُ اللّه وكأنَّه يَحفَظُ كِتابَه عَن ظَهرِ قَلْب:

- اللُّبان يا مولاي هُوَ «الكُنْدُر» بالفارِسيّة، وأجودُه فِي دِيارِ شِحَر عُمان. ولدِيسْقوريدس، وجالينوس، وابن سَمْحون، والدّينَوري، آراءٌ فيه. وأجْوَد ما يكونُ منه يا مولاي هو «اللّبانُ الذّكر»، فهو يجلُو ظُلمةَ البَصر، ويَلزقُ الجراحات الطَرِيّة، ويَقطَعُ نَزْف الدَّمِ، ويَمنَعُ القُروحَ الخَبيثَةَ إذا خُلِط بِلَبن، ويوقِفُ الألَمَ إذا خُلِط بِزَيت أو خَلٍّ، ويَشْفِي مِن حُروقِ النّار إذا خُلِط بِشَحْم، و..

فقاطعَه المَلِكُ الصَّالِح ضاحِكًا، وقال:

- حَسبُكَ يا أبا مُحمد. الآنَ نَأذَنُ لَكَ فِي السَّفَرِ أنتَ وأهلك إلى دِمَشق، فَأنتَ لَها مُحِبّ.

فقال عبدُ اللّه بامتِنانٍ:

- حُبِّي لغُوطَتها وأعشابِها يا مولاي. وما حَجَزني عَن الرَّحيل إلَيْها هَذِه السَّنَوات، سِوَى حِرصِي عَلى إنْجازِ هذا الكِتاب، فَلاَ يَعلَمُ إلاّ اللّهُ وَحدَهُ، مَتَى يَكونُ الأجَلُ.

رجل أحمق

صَحِبَ عَبدُ اللّه زَوجَتَه خَضْراء مَعَه إلى دِمَشق، تارِكًا بَيتَه بِجَزيرةِ الرَّوضةِ إلى حِينِ عَودَتِه، واستَأجَرَ بَيتًا مُتَواضِعًا فِي غُوطة دِمَشق، سَكَنَه هُوَ وخَضْراء. ولَم يكدْ يمرُّ عَلَيْهِما فِي الغُوطة عامٌ واحِدٌ، وبينما كان عبدُ اللّه وخَضراءُ يحزِمان بَعضَ النَّباتاتِ الطِّبِّيّة، أمامَ البَيتِ الصَّغير، إذَا جاءَ رَجلٌ أحمق من أهلِ الغُوطة وفاجَأ عبدَ اللّه بِقَولِه دُونَ تَمهِيد لما يَقولُه:

- سَقَطَت دِمْياطُ فِي يَدِ المَلِك الفرنسي لويس التاسِع!!

فَبُهِتَ عبدُ اللّه لِلخَبَر، وهَمَسَ مُرَوَّعًا:

- ماذَا ؟!

وأضافَ الرَّجُل الأحمَقُ يقولُ بِسُرعةٍ كابُوسيّة:

- نَعَم. سَقَطَت، ولويس يَتَقَدّم الآنَ بِجُيوشِه نَحوَ «المَنصورة». يَقولُونَ إنّ عَسكره قَد أحاطَ بِسُرادِقِ المَلِك الصَّالِح عِندَ «البَحرِ الصَّغير» بالمَنْصورة.. و ..

وخَفَقَ قَلبُ عبدُ اللّه خَفقةً أخيرةً، وسَقَط بِوجهِه فَوقَ نَباتاتِه، وانحنَت فَوقَه خَضراءُ تُنادِيه نَاشِجةً.

ولَم يَعِش عبدُ اللَّه ليَعرِفَ أنَّ المَلِكَ الصَّالِح قَد نَجا بِفَضلِ فُرسانِه مِن حِصارِ الفِرنْجة، وأنَّه قَد ماتَ علَى فِراشِه، وأنَّ زَوجَتَه شَجَرةُ الدُّرّ قَد نَهضَت بِالأمرِ مِن بَعدِه، فَتكَتّمت خَبَرَ مَوتِه، وألحَقَت جيوشُ المُسلمينَ بِالجَيش الصَّليبيّ الفرنسيّ هَزيمةً ساحِقةً. وأسرَت المَلِك لويس التّاسِع، وسَجَنَتْه في دارِ ابنِ لُقمان بمدينةِ المَنصورة.

❁ ❁ ❁

في سَنة خَمسمائةٍ وتِسعٍ وثَمانينَ هجريّة، ألفٍ ومائَةٍ وتِسعٍ وتِسعينَ ميلاديّة، وُلِدَ عالِمُ النَّباتِ الأندَلُسيّ المَالقِي: «عبدُ اللّه بن أحمد البَيْطار» بِمَدينة «مَلَقَا» بالأندَلُس.

وفي سَنَة ستمائةٍ وستٍّ وأربعينَ هِجريّة، ألفٍ ومائتينِ وثَمانٍ وأربعينَ ميلاديّة، وكانت وَفاتُه بِمَدينة دِمَشق، ولَه مِنَ العُمرِ سِتّونَ سَنَةً هِجريّة، تِسعٌ وخَمسونَ سَنَةً ميلاديّة.

وبَقِيَت ذِكرَى العالِم ابن البَيْطار حَيَّةً مِن بَعدِه، في تاريخِ عِلْمِ النَّبات، وعِلمِ الطِّبّ وعِلمِ الصَّيدَلة، في دِيارِ الإسلام، وفي أوربا، إلى مَطالِعِ عَصرِ النَّهضة الأوربيّة، وتَرجَمَ المُستَشرِق النَّمساويّ

«سونتها يمر» كتابَه «الجامعِ لمُفردات الأدويَة والأغذيَة» إلى اللُّغة اللاَّتينيِّة بعُنوان «مُفرَداتُ ابنِ البَيْطار» فِي العقدِ السّابعِ منَ القَرنِ التّاسعِ عَشَر الميلاديّ. وتَرجَمه المُستَشرِق الفرنسي «لكليرك» إلى الفرنسيةِ في العِقدِ الثّامنِ من نَفسِ القَرن. ولاَ تَزالُ شُعوبُ الأندَلُس «إسبانيا الآن»، والمَغرِب، ومِصر، والشّام، واليُونان، وإيطاليا، تَفخَر بأَنَّ «ابن البَيْطار»، عالِمَ النَّبات، عاشَ فِي دِيارِها عَدَدًا مِنَ السِّنين.

5

ابن البيطار

قصة عالم نبات مسلم، عاش منذ ثمانمائة عام. غرس النباتات النادرة فى الحدائق، وساح فى أرجاء الأندلس والمغرب الكبير وآسيا الصغرى و اليونان والشام لمعرفة عالم النبات. ووصف ألفا وأربعمائة نبات. وتحدث عن العلاج بها. ومن بينها ثلاثمائة نبات من اكتشافه. وصار رئيسا للصيادلة بمصر و الشام. وألف كتابين فى العلاجات النباتية والمعدنية والحيوانية. و صارت كتبه من بعده مرجعا للصيادلة والأطباء وعلماء النبات. إنها قصة تثير الفخار، يقرؤها الصغار والكبار.

صدر من هذه السلسلة:

1- ابن النفيس
2- ابن الهيثم
3- البيروني
4- جابر بن حيان
5- ابن البيطار
6- ابن بطوطة
7- ابن سينا
8- الفارابي
9- الخوارزمي
10- الإدريسي
11- الدميري
12- ابن رشد
13- ابن ماجد
14- القزويني
15- ابن يونس
16- الخازن
17- الجاحظ
18- ابن خلدون
19- الزهراوى
20- الأنطاكي
21- ابن العوام
22- الطوسي
23- الكاشي
24- الوزان
25- ابن الرزاز
26- تقي الدين
27- الرازي
28- الكندي
29- الخليل
30- ابن حمزة
31- الزرنوجي
32- يوحنا بن ماسوية
33- ياقوت الحموي
34- ثابت بن قرة
35- ابن ملكا
36- ابن الشاطر

448

© Editions Anep
ISBN: 9947-21-283-1